توضيحات حول بعض الأحداث
التي وقعت خلال حرب غرناطة (1482-1492)

الباحث محمد بلحمر
(مستوى السنة الأولى ماستر التاريخ والحضارة)
جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء
المغرب

الخطوط العريضة للبحث

1- مبالغات تاريخية:

أـــ الشخصية الأولى هو القائد، موسى بن أبي غسان

ب ـــ الشخصية الثانية هي الأميرة فاطمة أو "عائشة الحرة"

ج ـــ المبالغة المسيحية والغربية

2- الأساطير التاريخية الكاذبة حول:

"تنهد المور" ـــ «Le soupir du Maure» وعبارة عائشة الحرة إلى ابنها أبو عبد الله الصغير

3- حقيقة رفض العالم الإسلامي تقديم المساعدات لدولة بني الأحمر

خلال حرب غرناطة (1482-1492):

1- مبالغات تاريخية

كثيراً ما نجد خلال القراءات التاريخية، مبالغات في سرد أو وصف الوقائع والأحداث التاريخية، عند بعض المؤرخين؛ ويعود ذلك بالتأكيد إلى الرغبة في تجميل نصوصهم، أو الرغبة في إثبات صحة نظريتهم بأي ثمن في الحكم على بعض الحقائق التاريخية، أو بسبب انتمائهم العقائدي أو العرقي أو الديني.

ولهذا قررت أن أتحدث قليلا عن هذا الموضوع الذي عنوانه "المبالغات التاريخية" والذي يتعلق أساسا بوضع غالبية المؤرخين المسلمين، على قاعدة التمثال شخصيتين أندلسيتين تستحقان أو لا هذه المبالغة.

وهاتان الشخصيتان هما القائد الأندلسي ابن أبي غسان والأميرة فاطمة أو عائشة الحرة والدة محمد الثاني عشر، أبو عبد الله الصغير.

لقد سمح بعض المؤرخين العرب المسلمين وغيرهم بوضع الشخصيتين المذكورتين أعلاه على قاعدة التمثال، فقد مجدوهما وبجلوهما خطأ على حساب ملوك السلالة النصرية الذين ناضلوا من أجل تأسيس دولة إسلامية موحدة وبناء حضارة لا مثيل لها. امرأة مسلمة في أرض العدو، وفي النهاية على حساب الملك الشاب أبو عبد الله، الذي عاش عشر سنوات من الجحيم في ساحات القتال والسجون المسيحية.

هل هاتان الشخصيتان تستحقان فعلا ذلك؟

أ- الشخصية الأولى هو القائد المغوار والمحنك، موسى بن أبي غسان:

هو القائد الذي مجده وكرمه جميع الكتاب والمؤرخون المسلمون وبكل بساطة لأنه نطق بكلمة واحدة وقال **"لا"** لاستسلام غرناطة، ومن ذلك الحين، اعتبر من طرف المؤرخين بطلا تاريخيا لحرب غرناطة، التي لن يشارك فيها إلا ببعض المعركات، وأصبح ملكه أبو عبد الله هو الخائن. فدعونا "نعيد لقيصر ما هو لقيصر!" وفي الخلاصة، إليكم ما يلي من أخبار تاريخية عن حياة هذا القائد المسلم رحمه الله، كما رواها مؤرخون مسلمون وإسبان:

إنها قصة أو رواية أو حكاية أو أسطورة نهاية القائد الكبير، موسى ابن أبي غسان، والتي ربما لا تعتبر رواياتها ووصفها حقيقة أو حدثا تاريخيا، بل هي تاريخية أسطورية، بسبب الجدل حول الروايات المختلفة عنه، ماذا حدث له بعد أن نطق بكلمة "لا" الشهيرة لاستسلام غرناطة وبعد مغادرته لقصر الحمراء.

وبحسب بعض المؤرخين، اتخذ موسى قراراته بنفسه، دون احترام الاتفاقيات والقانون والسلطة الملكية، وكان ينتقد ويتذمر طوال الوقت من سياسة أبو عبد الله الخجولة، ولم يحترم قط الهدنة الموقعة بين غرناطة وقشتالة، خاصة خلال محادثات السلام. الرفض الذي أوصل الأمر إلى نهاية دراماتيكية.

أثناء حصار غرناطة، لم يتوقف موسى لحظة واحدة عن السخرية من المعسكر المسيحي وتحديه من خلال رمي الرماح والسهام عليه، رغم أنه كان يجب نزع سلاحه كما نصت معاهدة السلام، إلا أن المسيحيين رفضوا بناء على أوامر إيزابيل الرد على هذا التحدي والتهديد، احتراماً للهدنة، لأنه كان من السهل، الرد على هذا الهجوم وأسر أبا غسان أو قتله، لكن الأمر الملكي كان صارمًا، فلا قتال أو أسلحة أثناء الهدنة.

وفي أثناء المجلس الملكي الذي عقد في قصر الحمراء لتقرير مصير غرناطة، تقول الأسطورة الإسلامية أن موسى خرج غاضبا من القصر، حيث التقى بجنود العدو فقاتلهم بشجاعة واختفى، فانقطعت أخباره منذ ذلك الحين.

لكن، حسب مخطوطات الكنيسي أنطونيو أجابيدا أو أغابيدة Antonio Agabeda، كانت رغبته الوحيدة هي أن يَقتِل ويُقتل، أراد أن يموت شهيداً بأي ثمن وبأي طريقة، وهكذا قُتل وحيداً دون أن يتبعه أحد في مغامرته المجنونة التي كلفته حياته بلا داع.

وفي هذا الصدد، سعى السفير والكاتب والمؤرخ الأمريكي واشنطن إيرفينغ، الذي كان يقيم في قصر الحمراء للتحقيق والكتابة عن سقوط غرناطة، إلى الحصول على مخطوطات معاصرة في ذلك الوقت، ذات طابع معين. رجل دين اسباني اسمه أنطونيو أجابيدا[1] أو أغابيدا، في مختلف الأديرة وفي مكتبة الإسكوريال بمدريد الذي قام بتجميعها ومقارنتها بوثائق أخرى، تبين أن المخطوطات كتبها رجل حكيم وليس مجرد رجل كنيسة.

ومن ناحية أخرى قال الدكتور هاني يحيى نصري مترجم "أخبار سقوط غرناطة":

"كما سعى واشنطن إيرفينغ إلى معرفة الحقيقة في هذا الموضوع من خلال الرجوع إلى الوثائق التاريخية التي جمعها المفكر والأديب، لدى القارئ صورة واضحة عن حقيقة بعض الوقائع والأحداث التي حدثت خلال حرب غرناطة."

تناول المؤرخ واشنطن إرفين رواية المسلمين وقال إن حكاية المؤرخين العرب عن اختفاء بطلهم موسى ابن أبي غسان قد تلخصت عندما خرج من قصر الحمراء، وواجه جنودا مسيحيين، فذبحهم ببسالة واختفى؛ لكن الحقيقة عنه مختلفة بحسب الوثائق الإسبانية التي عثر عليها لأنطونيو أغابيدا، على يد واشنطن إيرفينغ الذي قال:

ثم أضاف: **"هذا الفارس المجهول هو موسى بن أبي الغسان، وكان حصانه معروفاً عند بعض المتحولين إلى الإسلام الذين كانوا في معسكر الإسبان".**[2]

«كان ذلك وقت الهدنة ولم يكن يُسمح للمسلمين إلا بحمل أسلحة للدفاع فقط[3]. وعندما رأى الجنود المسيحيون الفارس المجهول يتقدم نحوهم وهو في هيئة متنكرة، طلبوا منه أن يتوقف ويُعرّف عن نفسه. لكنه دخل في معركة معهم، حتى هُزم أو جُرح حوالي نصف فرسانهم. انكسر درعه وتعرض لإصابة، ورغم جراحه كان واضحًا أنه يرغب في الموت. وفي النهاية، سقط حصانه تحته، وحاول الفرسان المسيحيون الإمساك بيده لإنقاذ حياته، لكنه واصل القتال وهو راكع ممسكًا بفأس في يده. وعندما أدرك أنه لم يعد قادرًا على الاستمرار في القتال، خشي أن يقع في أيدي العدو، فهرب وألقى بنفسه في النهر مثقلًا بدرعه الذي كان يثقله، فابتلعته مياه النهر.»

وفي النهاية، اختتم واشنطن إيرفينغ بالقول: **"ومع ذلك، فإن هذه القصة لا تزال تفتقر إلى مزيد من الحقيقة والتحقق من صحتها".**

ثم جاء حديث شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال: **«لأن الجهاد – وخاصة الجهاد ضد الأعداء ومع النفس – لا يتم إلا بالقوة، والقوة لا تُنال إلا بالوحدة، والوحدة لا تتحقق إلا بالقيادة، والقيادة لا تكون صالحة إلا بالسمع والطاعة [...]»**

وهنا، عصى موسى القيادة مما دمر نظريته في الجهاد.

ما رأي القارئ بعد هذه الدراسة والتحليل، هل يستحق هذا التمثال مجرد قول "لا"؟ سيقول المتدينون ودعاة الحرب نعم، وسيقول المسالمون لا! ولإغلاق هذا الملف، أود أن أقول، لو كان الأمر كذلك في عهد الملك أبو الحسن علي أو ملك آخر غير أبا عبد الله، لأدت وقاحة وانتقاد أبو غسان لسلطانه تؤدي به إلى قطع رأسه كما كان الحال مع بني السراج في قصر الحمراء ومع ابنه الأمير أبو حجاج، لما أمر أبو الحسن بقتله.

ب- الشخصية الثانية هي الأميرة فاطمة أو "عائشة الحرة":

أميرة أندلسية مسلمة مجدت وكرمت من طرف المسلمين والمسيحيين لجاذبيتها وشجاعتها، من دون أن يذكر تورطها في إطاحة زوجها واستبداله بابنها أبا عبد الله الصغير، الشاب عديم الخبرة، فحدث تقسيم العائلة المالكة والمملكة بأكملها إلى ثلاث إمارات والشعب إلى ثلاث عشائر، دخلت جميعها في حروب داخلية وأهلية، أذى كل هذا إلى سقوط غرناطة.

ومن المؤكد أن فاطمة أو عائشة الحرة، كانت من السيدات النادرات في المملكة الأندلسية التي أثبتت نفسها كأميرة نشطة في شؤون الدولة والديوان الملكي، تتخذ القرارات ذات الصلة عند الضرورة، خاصة عندما ناضلت من أجل بقاء ميراث العرش الملكي في غرناطة لواحد من أبنائها الأمراء المسلمون أحمد أو يوسف، لا لأبناء المسيحية إيزابيل دي سوليس، زريا (Zoraya) أو ثريا.

ولسوء الحظ، أثار هذا الانقلاب الأخير انقساماً قاتلًا داخل المملكة، مما أدى إلى سقوطها، وللأسف، هذا سبب وجيه لإزالتها من هذه القاعدة.

لقد كان ذلك تأملاً شخصياً في بعض المبالغات الصارخة لدى المؤرخين العرب المسلمين، الذين ينبغي من حيث المبدأ أن يعطوا لقيصر ما هو لقيصر، ولكل شخص ما يستحقه حقاً، ويتجنب الأحكام المسبقة والتحيزات.

ج- المبالغة المسيحية والغربية:

أما بالنسبة للمبالغة المسيحية والغربية، فقد كان الأمر يتعلق بأكبر مهزلة تاريخية وسياسية عرفتها أواخر القرنين الخامس والسادس عشر، وهي تطويب الملكة الكاثوليكية إيزابيل الأولى ملكة قشتالة، المسؤولة عن جرائم ضد الإنسانية من خلال تصرفاتها أثناء وبعد سقوط غرناطة، حيث أظهرت كذبها وعنصريتها وكراهيتها للإسلام ومعاداتها للسامية. وتشهد الحقائق التاريخية من نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر على ذلك (من تعذيب، ومشانق، ومراسيم التفتيش، وإعدامات ونفي اليهود والمسلمين).

ويرى البعض أن هذا التطويب كان ضروريًا لذكرى من بشّر شبه الجزيرة الإيبيرية وأميركا اللاتينية، نعم، ولكن بأي ثمن، بقتل واستعباد السكان الأصليين وسرقة كنوزهم!

2- الأساطير التاريخية الكاذبة حول:

"تنهد المور" ــ "Le soupir du Maure " وعبارة عائشة الحرة إلى ابنها أبو عبد الله الصغير:" ابك كالنساء على الملك الذي لن تستطيع الدفاع عنه كالرجال ".

المؤسف أن نرى بعض المؤرخين والكتاب المسلمين يعتمدون في أغلب الأحيان في كتبهم التاريخية على هذه الأساطير المجردة من أي جدية وأي صحة لتجميل كتاباتهم أو رواياتهم، ولا يخصصون بعض الوقت للتحقق منها أو التحقيق فيها، وهذا أمر مؤسف، لأن جملة أسطورية صغيرة واحدة يمكن أن تقلل من سمعة هؤلاء المؤرخين والكتاب وذلك بتشويههم للتاريخ.

ولا يجب أن ننسى أن جيش أبوعبد الله تعب وأُرهِق وأصبح متشائما من استمرار القتال ومواصلة الأحداث ومستقبل المملكة، فلم يعد يتحمل أكثر وبدأ يتخلى عن مشاركته في القتال (نظرة على قصيدة تيوفيل غوتييه (Théophile Gauthier) " تنهد المور" حيث يقول:

"وا حسرتاه! تم تدمير قوتي.

جيشي الباسل في حالة فرار

وأغادر دون اتخاذ أي إجراء آخر

فقط ظلي خلفي!"

وهنا، من الواضح أن المؤلف شاعر مشهور، ولم يكن يستمتع بالكذب وبالقول إن هذه كلمات المور (Maure) أو كلمات أبوعبد الله، بل إنها قصيدته الخاصة. لقد استغل تيوفيل غوتييه هو أيضًا أسطورة أبو عبد الله لكتابة هذه الأبيات عن الملك الشاب، الذي كان يائسًا من سياق نهاية مملكته.

التقى أبو عبد الله، الذي لم يعد ملكًا في ذلك الوقت، بعائلته التي تقدمت نحو ألبوخاراس أو البشرات، وهنا ظهرت أسطورة أخرى، منتشرة على نطاق واسع ولكن لم يتم توثيقها من قبل أي مصدر والتي قد تكون بدأت من خيال الكنيسي فيلاسكيس دي إشيفريا خوان الذي نشره عام 1764، (بعد سقوط غرناطة بثلاثة قرون تقريبا)، في كتابه "فسحة في غرناطة" "Paseos por Granada" في القرن الثامن عشر، وهي الأسطورة التي تقول أنه عندما صعد أبوعبد الله فوق تلة، مغادرا غرناطة، التفت نحوها ليراها للآخر مرة، بكى، فقالت له والدته الأميرة عائشة: **"ابك كالنساء على المملكة التي لن تدافع عنها كالرجال"**. الجملة كاذبة، لكن هناك جبل يسمى ب "سوسبيرو ديل مورو."[4]

لويس مارتينيز إغيلاز، كاتب مسرحي إسباني، علق على بعض الأساطير وأقوال المؤرخين قائلًا إن المؤرخين ينكرون بالإجماع حادثة تنهيدة المور، وهي حكاية أو أسطورة من المعرفة العالمية. وأضاف أنه أمام مؤرخ الإمبراطور كارلوس الخامس، وأسقف وادي آش، وموندونيدو أنطونيو غيفارا سنة 1529، لا ينطبق على تأليفه الرسائل العائلية ومنحها مكانًا، بأكبر قدر من البراءة، في تاريخ المغاربة القدماء، وقد كتب أحد متابعي تاريخ ملوك بولغار الكاثوليك ما يلي:

"في ذلك اليوم (يوم دخول الملوك الكاثوليك إلى غرناطة)، قام الملك المغاربي بعمليتي حزن، وكانت عادة الملوك المغاربيين، عندما يعبرون نهرًا به ماء قليل، أن يغطي الفرسان المغاربيون أقدامهم وركابه، ولم يرد الموافقة: وعندما صعدوا الدرج، تركوا أحذيتهم الرياضية، وأخذهم المغربي الرئيسي الموجود هناك، وهو ما لم يرد الموافقة عليه. وبينما هو ذاهب إلى منزله الذي كان في القصبة دخل يبكي على ما فقده فقالت له أمه بما أنك لم تكن هناك لتدافع عنها كرجل فلا تبكي كامرأة»

لا يزال الأمر يتعلق بهذا الموضوع ووفقًا لـــ فراي دون أنطونيو دي جيفارا (1480 - 1545)، مؤرخ كارلوس الخامس أو شارل الخامس (1500-1558)، في إحدى رسائل عائلته، يدعي أنه سمع من موري عجوز، شاهد عيان وفي نفس المكان ماذا حدث:

"بالوصول إلى هذه النقطة، يجب أن تعلم، يا سيدي، أنني طوال هذه الزيارة أحضر عشرة رماة قوس ونشاب، ثم إلى حراستي، كما لو كانوا يريدون أن يريني الأرض، وبينما كنت أصعد التل، الذي فقدت فوقه رؤية غرناطة وأن من فال دي ليكرين يزعم أن رجلاً مغاربياً عجوزاً أخبرني أنه رافقني بهذه الكلمات بسوء الخميادا. إذا كنت تريد أن يتوقف ألفقيه الخاص بك قليلاً هنا، قليلاً لأخبرك بالصورة الكبيرة، التي يفعلها راي تشيكيتو ووالدته هنا. وفي يوم آخر تم تسليم المدينة وقصر الحمراء إلى الملك فرديناند، ثم غادر الملك تشيكيتو إلى بلاد البوخارا التي أراضيها

وبقي في الامتيازات التي كان يملكها والتي كان يتمتع بها باعتبارها ملكًا له. كانت الملكة، والدته، تسير في ذلك اليوم مع الملك الصغير، في المقدمة، وكل فرسان بلاطه، في الخلف، وعندما وصل إلى هذا المكان، حيث نقف أنا وأنت الآن، أدار الملك رأسه للوراء لينظر إلى مدينة قصر الحمراء، كشيء لم أعد أتوقع رؤيته، ناهيك عن التعافي، متذكرًا فيما بعد الملك الحزين وكل من ذهبنا معه إلى هناك، والمحنة التي حلت بنا والمملكة الشهيرة التي لقد خسرنا، مما جعلنا نبكي جميعًا وحتى لحانا الرمادية في حالة من الفوضى، ونطلب من الله الرحمة، وحتى الموت، ليأخذ حياتنا. عندما أخبرتهم والدة الملك (التي كانت في المقدمة) أن الملك والفرسان كانوا جميعًا واقفين ينظرون إلى قصر الحمراء والمدينة التي فقدوها، أعطت عصا للفرس التي كانت تركب عليها وقالت هذه الكلمات: ومن حق الملك والفرسان أن يبكون كالنساء، فإنهم لم يقاتلوا كالفرسان. لقد سمعت سيدي الملك ليتل مرات عديدة يقول إنه إذا عرف لاحقًا، كما اكتشف لاحقًا، ما قالته والدته عنه وعن الفرسان، فسوف يقتلون بعضهم بعضًا هناك أو يعودون إلى غرناطة للقتال مع المسيحيين. وهذا ما قاله لي هذا الرجل المغربي.

وهنا نلاحظ بعض التجاوزات من طرف المؤلف الذي سمي أبوعبد الله ب "تشيكيتو ــ Chiquito" بينما يسميه القشتاليون إما "تشيكو ــ Chico" أو "الري تشيكو – El Rey Chico " الملك الصغير.

الشكل 21

فراي دون أنطونيو دي غيفارا، مخترع المقولة الخيالية المنسوبة لعائشة الحرة اتجاه ابنها الملك أبو عبد الله الصغير.

https://www.filosofia.org/guevara.htm

الشكل 22: الرسائل العائلية، 1618

http://www.singularis.es/?p=3942

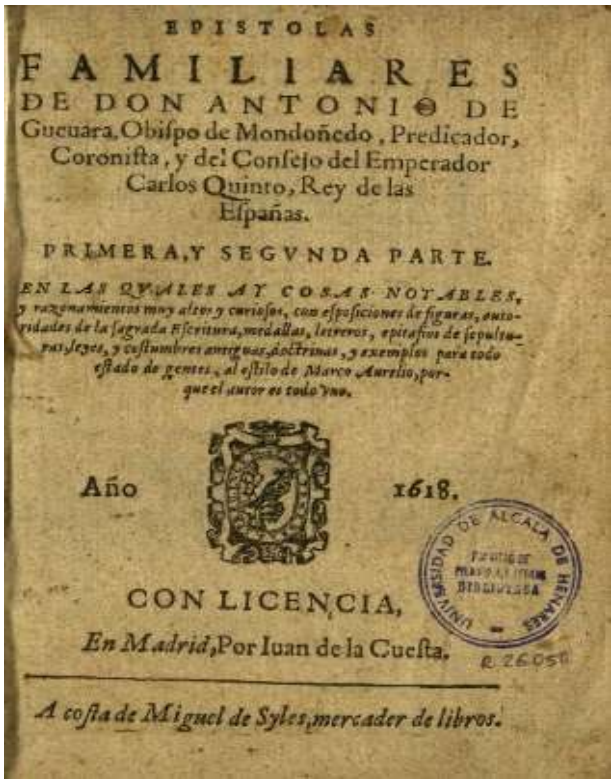
EPISTOLAS
FAMILIARES
DE DON ANTONIO DE
Gueuara, Obiſpo de Mondoñedo, Predicador,
Coroniſta, y del Conſejo del Emperador
Carlos Quinto, Rey de las
Eſpañas.
PRIMERA, Y SEGVNDA PARTE.
EN LAS QVALES AY COSAS NOTABLES,
y razonamientos muy altos y curioſos, con eſpoſiciones de figuras, auto-
ridades de la ſagrada Eſcritura, medallas, letreros, epitafios de ſepultu-
ras ſeñaladas, y coſtumbres antiguas, doctrinas, y exemplos para todo
eſtado de gentes, al eſtilo de Marco Aurelio, por-
que el autor es todo vno.
Año 1618.
CON LICENCIA,
En Madrid, Por Iuan de la Cueſta.
A coſta de Miguel de Syles, mercader de libros.

لقد كانت عبارة ملفقة من زميل كاثوليكي إسباني لم يعيش حتى خلال الفترة التي يتحدث عنها.

في إسبانيا، منذ القرن الرابع عشر وخلال فترات الحرب، أمر الملوك "الرومانسيون" السابقين على الحدود (الشعراء والكتاب المجهولين الذين كتبوا مجموعات تسمى الرومانسيات) بإعطاء الهيبة لمآثرهم وإبلاغ السكان بما كان يحدث. أثناء استعادة غرناطة، على سبيل المثال القصة الرومانسية لـــ "Cid"، وهي قصيدة ملحمية عظيمة مثل قصيدة "الإلياذة" و"أغنية رولاند".

ولم يتوقف هؤلاء "الرومانسيون" القدماء عند هذه المهمة، بل أضافوا إليها، يسردون ويمجدون، في نثر وقصائد ساحرة، مآثر جيشهم وأبطالهم وملوكهم.

لا أزال أتعلق بصدق أو كذب الجملة الأسطورية التي قالتها عائشة لابنها بوعبديل، وأثناء البحث عن مصادر آمنة وموثوقة لاكتشاف المؤلف المزعوم، عثرت على هذا المقال "إعادة كتابة الأندلس": أسطورة بوعبديل لبرناديت ري ميموسو رويز الذي كتب: « **وفقًا لأكثر المصادر موثوقية، يُعتبر سوينبرن (Swinburne) أول من نقل أسطورة «زفرة العربي»، مدفوعًا بنهج غير تقليدي تجاه إسبانيا التي سافر إليها، وراغبًا في إعلان الدين الذي كانت شبه الجزيرة قد استدانته من العرب.** »

كاتب آخر أراد أن يدخل التاريخ من الباب الرئيسي لكنه أخطأ تماما باختياره الباب الخطأ، عندما استشهد بالعبارة الأسطورية بهذه الصيغة الأخرى قائلا:

"يناسبك جيدا يا ولدي، قالت أمه، حدادا" كامرأة إكليل لم تعرف كيف تحافظ عليه كرجل. "، ويثبت بذلك أن الشك يحوم ولا يزال يحوم منذ قرون حول صحة هذه الجملة التي يقتبسها الجميع ويزينونها بطريقتهم الخاصة، إذ ليس لها مصدر معاصر موثوق، ولا يجد مؤرخونا الأعزاء ما يقولونه جيداً وصادقًا عنها سقوط غرناطة بهذه الجملة الكاذبة، مع الاعتقاد بأنها كانت تفعل الصواب!"

وفقًا لأسطورة إسبانية أخرى واسعة الانتشار، فإن صحتها متنازع عليها، باستثناء التشهير الذي نشره أسقف أستورغا (l'évêque d'Astorga)، بعد 75 سنة من رحيله، والذي يبدو أنه أصل هذه الأسطورة.

3- حقيقة رفض العالم الإسلامي تقديم المساعدات لدولة بني الأحمر،

خلال حرب غرناطة (1482-1492)

ماذا فعل سلاطين المغرب والجزائر وتونس والمماليك والعثمانيون لمساعدة مملكة غرناطة المسلمة التي تعرضت للمضايقة والاضطهاد والحصار من قبل جحافل من الجنود المسيحيين المتعصبين في فترة الاسترداد؟ لا شيء على الإطلاق! لم يحركوا ساكناً، المفترض أنهم جميعاً كانوا يعبرون وفي نفس الوقت، يا لها من صدفة! الأزمات العسكرية مع جيرانها أو منافسيها، الحقيقة الأكثر ترجيحاً، في رأيي، كانت من ناحية الخوف من القوة الإسبانية الصاعدة الجديدة في حوض البحر الأبيض المتوسط، إذًا كانت معظم هذه الدول قد وقعت جميعها على صلح واحد على الأقل. واتفاقية الدفاع المتبادل ضد المعتدين المحتملين، وكذلك الاتفاقيات التجارية.

هؤلاء المسلمون والقادة والمؤرخون، الذين شهدوا بلا حول ولا قوة إعدام مسلمي الأندلس واستيلاء المسيحيين على عاصمتهم غرناطة، لم يفوتوا الفرصة لإلقاء اللوم عليهم بمرارة على هذه الهزيمة والاستسلام، واتهامهم مباشرة بأنهم ابتعدوا عن الإسلام والجهاد، تضامن إسلامي مضحك! ألا يعلمون هذا الحديث النبوي الذي يقول: "انصر أخاك ظالما أو عادلا" "أنصر أخاك ظالما أو مظلوما" في حق الأخ المسلم.

وفقًا لمقال راشيل أريبي،[5] يوجد هناك محتوى بعض الوثائق المعروفة التي تتعلق بالعلاقات الدبلوماسية بين مملكة غرناطة والقاهرة.

ويظهر من هذه الوثائق أن غرناطة النصرية اتجهت إلى مماليك مصر عندما فشلت المساعدات المرينية.

منذ القرن الخامس عشر، حالت سلسلة من الأحداث دون التدخل لصالح مملكة غرناطة، وتحديدًا تراجع المرينيين ولامبالاة أوصيائهم الوطاسيين.[6] فيما يتعلق بغزو إسبانيا، بسبب تمركز البرتغاليين في سبتة واستيلاء الإسبان على مضيق جبل طارق.

ويبدو أن دور سلاطين مصر سلبي بحت،[7] ولم يكن من المتصور تقديم أي مساعدة فعالة لإنقاذ الإسلام المحتضر في إسبانيا. ويقول أحد المعلقين إن سلبية سلاطين المماليك يمكن تفسيرها بسياستهم الخارجية، وانشغالهم بالدفعة المغولية والخطط التركية للتوسع في آسيا الصغرى.

العلاقات الثقافية بين المسلمين المصريين ومسلمي الشرق في عهد النصريين:

اتخذ المرينيون والمماليك نفس الموقف فيما يتعلق بمساعدة مسلمي الأندلس،[8] ولم يتحدث التقرير إلا عن تبادل السفارات والرسائل والهدايا، ويؤكد أن "التلميحات إلى مساعدة محتملة من مصر ضد المسيحيين في إسبانيا" الواردة في المراسلات الدبلوماسية التي أرسلها بلاط القاهرة إلى محكمة فاس "لا تعكس نية صادقة".

ومن جانبه، وقع السلطان الوطاسي أبو عبد الله الشيخ محمد بن يحيى المملوك لفاس، معاهدة سنة 1479 مع مملكة قشتالة، تمنحها حقوقا حصرية على الساحل الإفريقي.

أما زيانيون تلمسان، فقد انشغلوا كثيرا بمشاكلهم مع جيرانهم المرينيين والحفصيين.

فالحفصيون بتونس الذين دعموا الثورة الشيادمية منذ أكثر من عشرين عاماً، سعوا جاهدين إلى إقامة أفضل العلاقات مع مملكة قشتالة ليتمكنوا من حماية أنفسهم ضد مماليك مصر الذين أقاموا علاقات تجارية مع قشتالة في خضم حرب غرناطة. وبعده، على سبيل المثال، قام الملك ألفونسو، بإرسال رسول غرناطي محمد البنيولي لطلب مساعدة عسكرية من الملك النصري إلى السلطان المملوكي أبو سعيد جقمق الظاهر، إلا أن سلطان القاهرة رفض هذا الطلب[9] نظراً لبعد الأندلس، فاكتفوا بتقديم المال والسلاح والهدايا السخية.

والدليل على عدم قدرة المماليك على التدخل لصالح مملكة غرناطة، ذكرت وثيقة أنه في 27 أبريل 1489، كتب الملك فرديناند من قرطبة إلى شخص يدعى ماتيو كوبولا للحصول على تفاصيل حول مشروع يتمثل في إرسال 50 سفينة إلى "سلطان بابل" الذي اعتبره الزعيم المسلم الوحيد القادر على إحباط الاندفاع العثماني في الشرق.[10]

باختصار، كان جميع مسلمي حوض البحر الأبيض المتوسط غير قادرين على تحدي القوة الإسبانية والبرتغالية الجديدة لمحاولة إنقاذ مملكة بني الأحمر النصرية، التي أصبحت جائعة وأصبحت أقلية في الموارد البشرية والعسكرية.

بادئ ذي بدء، بدأت بلدان المغرب العربي تضعف بسبب صراعاتها مع جيرانها ومع منافسيها ومع الفاتحين البرتغاليين والإسبان.

فبدءاً من ضعف وتراجع الإمبراطورية المرينية ولامبالاة الحكام، ثم نهايتها عام 1465، والتي تزامنت مع تقدم الاسترداد في إسبانيا وتوغل القوات في أراضي المسلمين والانجراف الكامل لمملكة غرناطة.

وفي عام 1472، ظهر أول سلطان وطاسي (بعد الاستيلاء على فاس من طرفه) ليحل محل المرينيين والعثمانيين والبرتغاليين والإسبان والسعديين، فوقعوا جميعا معاهدات سلام واتفاقيات تجارية، مع المسيحيين الإسبان والبرتغاليين، وكانت في هذه الحقبة الكثير من العلاقات الخارجية بين بني وطاس والإسبان والبرتغاليين سيما من طرف ثاني ملوك بني وطاس محمد أبو عبد الله بن محمد الشيخ الملقب بالبرتقالي لسجنه عند البرتغاليين (البرتقاليين) لمدة سبع سنين.

ومن ناحية أخرى، بدأ الخطر من العثمانيين يزعج الوطاسيين الذين فضلوا، بسبب كل مصائبهم السياسية والعسكرية، التحالف مع الإسبان والبرتغاليين للحفاظ على عرشهم من منافسي السعديين، وقع السلطان المؤسس محمد الشيخ على معاهدة سلام مع البرتغال عام (876هـ/1471م)، ثم توالت الاتفاقيات الأخرى بين الطرفين، كما واجه في عهد ابن حسون الوطاسي الخطر المتزايد من السعديين الذين كانوا يرغبون بشدة في الاستيلاء على عرشه في فاس، وكانت هذه الاتفاقيات هي التي تعني أن أيدي الوطاسيين كانت مقيدة ولم يتمكنوا من تقديم المساعدة المباشرة لأبو عبد الله في محنته.

–الدولة الزيانية في الجزائر (1235 إلى 1556): عملت الدولة الزيانية على مواجهة الخطر الخارجي المتمثل في الدولتين المجاورتين شرقا وغربا (الحفصيين والمرينيين)، وهذا ما أعاق مسار العلاقات مع مملكة غرناطة بحيث كانت الدولة الزيانية في أغلب الأحيان في مرحلة الدفاع عن كيانها داخل المغرب الإسلامي، وكانت الحروب تستنزف طاقتها وتسببت في تراجعها، وهو ما منعه بلا شك من النجدة لمملكة غرناطة، مما عجل بطريقة ما بسقوط مملكة غرناطة.

– الدولة الحفصية بتونس: التي أخضعت شرق الجزائر حتى أنها ذهبت إلى حد فرض سيادتها على مملكة تلمسان، واعتبروا أنفسهم ورثة الموحدين في المغرب الأوسط، وعملوا على انسحاب بني عبد الواد في أول الأمر.

– العثمانيون: عوامل كثيرة حالت دون قيام العثمانيين بإنقاذ الأندلسيين:

– وكان من أهم هذه العوامل الطبيعة الجغرافية (البُعد)، حيث أن المسافة بين غرناطة والقسطنطينية كبيرة جداً، مما جعل وصول الجيش العثماني إلى الأندلس وعبوره لكل هذه الحواجز شبه مستحيل.

– تحالف الصليبيين الأوروبيين ضد العثمانيين والإسبان أغلق مضيق جبل طارق.

– العوامل العسكرية والسياسية: منذ نشأتها على يد مؤسسها عثمان الأول بن أرطغرل، لم تتوقف الدولة العثمانية عن الجهاد في سبيل الله وقاتلت على عدة محاور في نفس الوقت، بينما كان يشتبك مع أوروبا. غرباً، والصفويين والمماليك شرقاً، وكان لذلك بالطبع أثر كبير في انشغال العثمانيين الأندلسيين، رغماً عنهم.

– الدولة الشيعية الصفوية: الدولة الصفوية الشيعية في إيران كانت بمثابة خنجر مغروس في ظهر الدولة العثمانية، فكانت محاولات كثيرة ستنجح لولا خيانة الصفويين الذين خدعوا العثمانيين وهاجموهم، عوامل كثيرة حالت دون العثمانيين من إنقاذ الأندلس.

العثمانيون فقط، هم الذين قاموا بعد سقوط غرناطة ببعض المحاولات لمساعدة مسلمي الأندلس المنكوبين، وبدأ الأمر بابن محمد الفاتح بايزيد الثاني الذي رغم حروبه الشرسة مع مختلف القوى الأوروبية والصفويين والشيعة والمماليك، أرسل أسطولاً ضخماً بقيادة النقيب "كمال رئيس"، لمهاجمة السواحل الإسبانية ومحاولة النزول في إسبانيا والوصول إلى غرناطة، لكن عوائق الإسبان والأوروبيين، فضلاً عن خيانة بعض القوى الإسلامية مثل رفض المماليك والحفصيون في تونس مد يد العون للغرناطيين، لكنه فشل في مهمته لإغاثة المملكة المنكوبة.

ثم جاء دور السلطان سليم الأول: استمرت محاولات العثمانيين لإنقاذ الأندلسيين حتى بعد سقوط الأندلس، فأرسل إلى قائد الأسطول الإسلامي عروج (بربروسا)، أمر بالقيام بمهمة مستحيلة، تتمثل في مهاجمة الأندلس والسواحل الإسبانية وإنقاذ مسلمي الأندلس من محاكم التفتيش وضمان عودتهم إلى الجزائر، فشل بربروسا في مهمته.

وبعد ذلك، عندما أصبح الأندلسيون موريسكيون، السلطان العثماني الأكبر، جهز الحكم جيشا قوامه مائتي ألف رجل، وحاول الوصول إلى الأندلسيين مرورا بفيينا، لكن منعه الشيعة الصفويون الذين هاجموا عاصمة خلافة العثمانيين.

وكان آخر سلطان حاول مساعدة الموريسكيين أيضًا هو السلطان سليمان، الذي أرسل ثمانين سفينة وثمانين ألف مقاتل، جميعهم إنكشاريون يقودون أسطوله، أما "خير الدين بربروسا" فقد تلقى الأمر بالهجوم على القشتاليين وإنقاذ أكبر عدد ممكن من المسلمين. ونتيجة لهذا الهجوم الذي أمر به السلطان العثماني سليمان، استقبلت الدولة العثمانية ما يقرب من نصف مليون أندلسي مسلم ويهودي إلى تركيا.

سبب آخر دفع المغاربة إلى عدم التدخل في إسبانيا لمساعدة إخوانهم الأندلسيين، الذين اضطهدتهم حرب الاسترداد ومدفعيتها القاتلة، هو فقدان السيطرة.[11] فأصبحت تقريبا كل المدن الساحلية المغربية، لصالح البرتغاليين والإسبان.

وهذا ليس كل شيء، فقد أصبح بعض الحكام والشخصيات العظيمة في البلاد تابعين[12] المملكة البرتغالية التي دفعوا لها الجزية ذهباً، وسلموا لها الطعام وعدداً كبيراً من الخيول لجيشهم الذي شارك في الاسترداد الإسباني ضد مسلمي الأندلس، كان ذلك نوعاً من الخيانة الخارجية! ومن بين هؤلاء التابعين، مدينة آسفي وأزمور وموكادور[13]، ولم تكون هناك سوى رسالة[14] الملك جواو الثاني المؤرخة لعام 1488، الموجهة إلى القاضي وسكان المدينة[15]، التي تشهد على تجديد السيادة البرتغالية وتعهد القاضي بدفع الجزيات وتنفيذ التزاماته تجاه ملك البرتغال بحسن نية.

وهناك نشهد على استمرارية حروب الاسترداد المسيحية على الأراضي المغربية، وهو ما يغفل ذكره المؤرخون المغاربة في كتاباتهم.

وفي سياق الحديث عن حروب الاسترداد في المغرب، كان على سكان آسفي وأزمور ومُوكَادور وغيرها من المناطق في البلاد أن يدفعوا كل عام في شهر سبتمبر ثلاثمائة مثقال[16] من الذهب، أو ما يعادلها من الشمع أو سلع أخرى، وأن يرسلوا حصانين جيدين من الخيول الشابة.

حوالي أكتوبر عام 1488، في الوقت الذي أكد فيه الملك البرتغالي جواو الثاني الرسائل التي منحها ألفونسو الخامس لصالحه، كان قاضي آسفي هو أحمد بن علي بن فرحوم، وكانت الدسائس والنزاعات بين ابني أخيه الباب الذي احتاجه البرتغاليون للتدخل في شؤون آسفي. كان أحمد بن علي قد شاخ ولم يعد يحكم المدينة بشكل جيد، فكان ابنا أخيه، يحيى الزيات (المشتبه في كونه من عائلة الزيات التي ينتمي إليها الحسن الوزان) وعبد الرحمن، يتنازعان على السلطة، ستخدمين التحالفات مع البرتغاليين والقشتاليين[17]، كما كان الحال في الأندلس. ومرة أخرى، هذه حقائق وأحداث تاريخية تغافل عنها المؤرخون المغاربة ولم يدينوها كما أدانوا حكام الأندلس وسلطانها أبوعبدالله الشاب.

1) الوطاسيون، المنزعجون من الاحتلال الإيبيري لسواحل المغرب والخطر الدائم من منافسيهم السعديين، اختاروا عن طريق سلطانهم الشيخ محمد بن يحيى التوقيع سنة 1479[18]على معاهدة مع قشتالة، تمنحهم حقوقًا حصرية على الساحل الأفريقي.

2) الزيانيون من تلمسان أو بنو عبد الواد (بنو عبد الواد من تلمسان، الذين كانوا مشغولين للغاية مع المرينيين والحفصيين المجاورين.

3)حفصيون تونس (الحفصيون) الذين سعوا إلى إقامة أفضل العلاقات مع مملكة قشتالة ليتمكنوا من حماية أنفسهم ضد مماليك مصر الذين أقاموا علاقات تجارية مع قشتالة في خضم حرب غرناطة.

خلال هذه الفترة، لم يتمكن المغرب من إرسال أي مساعدة إلى أبو عبد الله، حيث كان هو نفسه تحت تهديد عملية الاسترداد التي تستهدف مدنه الساحلية على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي من قبل الأسطول البرتغالي.

الهوامش:

[1] "أخبار سقوط غرناطة"، واشنطن إيرفينغ، هاني يحيى نصري) ترجمة(https://www.goodreads.com/book/show/15991217،

[2] الأمير شكيب أرسلان – الأمير شكيب أرسلان الأمير شكيب أرسلان خلاصات تاريخ الأندلس، منشورات دار مكاتب الحياة، بيروت، لبنان، ص.275-276

[3] "أخبار سقوط غرناطة"، واشنطن إيرفينغ، هاني يحيى نصري) ترجمة(https://www.goodreads.com/book/show/15991217،

[4] مقال :العنوان Ruta por la Historia: Guerra y Toma de Granada -17 نوفمبر2017 ، تم النشر بواسطةالطريق إلى التاريخ، تم الوصول إليه في 26 سبتمبر 2022 http://rutapo-lahttp://rutapo-rlahistoriablog.blogspot.com/2017/11/-de-toma-y-guerra-granada.html

[5] Article: R. ARIÉ « les relations diplomatiques et culturelles entre musulmans d'Espagne et musulmans d'orient au temps des nasrides », Mélanges de la Casa de Velázquez Année 1965 1 pp. 87-107, https://www.persee.fr/doc/casa_0076-x_1965_num_1_1_928230

[6] R. Arié مرجع سابق، ص 9

[7] المرجع نفسه.

[8] المرجع نفسه.

[9] مقال :ر .آرييه،" العلاقات الدبلوماسية والثقافية بين مسلمي إسبانيا ومسلمي المشرق في زمن النصريين"، يمزج من كاسا دي فيلاسكيزسنة 19651ص. 87-107، ص 94 https://www.persee.fr/doc/casa_0076-x_1965_num_1_1_928230

[10] المرجع نفسه، ص 96

[11] Article : Celso Malecha Teixeira, Afonso « Gouverner les villes maghrébines lors de l'occupation portugaise (XVe-XVIe siècles) » : Gallon, F., dir., Tractations et accommodements, Pessac, Ausonius éditions, collection CPIM 1, 2023, 149-167, consulté le 20/03/2023], https://una-editions.fr/gouverner-les-villes-maghrebines-lors-de-loccupation-portugaise/

[12] المرجع نفسه، سيلسو ماليشا تيكسيرا، أفونسو

[13] المرجع نفسه.

[14] المرجع نفسه.

[15] Cénival, Lopes, Ricard & Véronne, éd. 1934-1948, t. 1, 25-30.

[16] المثقال: وحدة وزن في العالم الإسلامي تعادل بشكل عام 4.25 جرام، وتستخدم بشكل خاص لوزن المعادن الثمينة.

[17] Article : Celso Malecha Teixeira, Afonso « Gouverner les villes maghrébines lors de l'occupation portugaise (XVe-XVIe siècles) » : Gallon, F., dir., Tractations et accommodements, Pessac, Ausonius éditions, collection CPIM 1, 2023, 149-167, consulté le 20/03/2023], https://una-editions.fr/gouverner-les-villes-maghrebines-lors-de-loccupation-portugaise/

[18] تتويجات أفريقيا، المغرب من 1200 إلى 1499، <http://kronon-ationsafrique.weebly.com/maroc-1200-1499.html>، تم الوصول إليه في 18 أبريل 2022 الساعة 4:04 مساءً.